

الفصل الثاني

المعتقدات الدينية لدى سكان المقاطعات الشرقية

في المجتمعات الشرقية القديمة التي كانت حركة التغيير تسير فيها ببطء، والمكانة الاجتماعية للفرد تتحدد فيها منذ اليوم الذي يولد فيه، وتتحكم بأفعاله علاوة على إرادته الشخصية، منظومة من العلاقات الراسخة مع الآخرين: الأقارب، وأفراد المشاعة، وموظفو الدولة، في تلك المجتمعات كان الفرد يعول إلى درجة كبيرة على قناعته بأن النظام الكوني معطى هكذا، على ما هو عليه، كما كان يتكل على التقاليد، وعبادة الآلهة الذين ورثهم عن الأسلاف، ونادراً جداً ما كان ينتهك حرمة أي من تلك الموروثات. ففي نص سومري يوصي الأب ابنه قائلاً: «يا بني! عد إلى الأجيال السابقة، واطلب النصيحة»؛ وتقول الحكاية السحرية المصرية: «الشقيقان»، كما لو أنها تتحدث عن شيء ما مسلم به، إن الأخ الأصغر كان يتصرف كل يوم «وفق النظام المعمول به»^(١). وينسحب هذا بدرجة أقل على دول المدن الإغريقية، ولكن حتى القرن ٤ ق.م، كان دور التقاليد هنا، بخاصة ما يتعلق منها بالشعائر قوياً جداً. ولكن بعد فتوحات الإسكندر المقدوني، ثم خضوع إقليم شرقي المتوسط كله لروما وتحويله إلى جزء من دولتها، انتهكت العلاقات التقليدية، وبات مصير الناس يرتبط بمدى تعسف القادة العسكريين والحكام، وعندئذ لم تعد الصلوات تجدي نفعاً، ولا تقديم القرابين للآلهة القديمة يضمن العون، فبات الفرد يحس أنه معزول، حائر ضائع في ذلك العالم المعادي له. وغدا التساؤل عن مغزى الحياة، ووسائل الخلاص من الآلام وتفاديها، هو المسألة الأساس بالنسبة إليه.

١ - لقد وصف فينبرغ أ. ب في كتابه: «الإنسان في ثقافة الشرق الأدنى القديم، موسكو، ١٩٨٦، وصف سمات رؤى سكان الإقليم المعني قديماً.

وقد حاول كثير من المدارس الفلسفية لذلك الزمن، العثور على إجابات عن هذه الأسئلة. فزعم بعض الفلاسفة أن الإنسان حرٌّ في اختيار طريق حياته، وأن مثل هذا الاختيار يجب أن يكون في العزوف عن أي نشاط فعال (مدرسة ايبيقور)، بينما أعلن آخرون (ومنهم الرواقيون) أن كل ما هو في حياة الإنسان، مقرر له مسبقاً، ولذلك فإن السعي للحصول على الخيرات المادية، هو سعي عبثي، وأنه ينبغي على الإنسان أن يلتزم بنزاهة بما يتوافق وإرادة العقل، وما يراه عادلاً وأخلاقياً (ومن هؤلاء، الفيلسوف الروماني الشهير سينيكا). كما كان ثمة فلاسفة متشردون: الفلاسفة الكينيكيون الذين دعوا إلى نمط عيش يحاكي نمط العيش الطبيعي، وقالوا بالامتناع عن امتلاك أي ملكية كانت، ودعوا إلى الوقوف ضد الدولة. بيد أن الفلسفة كانت ميدان العلية المثقفة من المجتمع، وكانت عاجزة عن رسم طريق للخلاص تفهمه الجماهير ويمنحها الأمل.

والسمة المميزة التي طبعت المعتقدات الدينية في مدن اليونان. وآسيا الصغرى، وإيطاليا إبان القرون الميلادية الأولى، هي تداعي هيبة الآلهة الإغريقية والرومانية. ومع أن القرايين كانت لا تزال تقدّم على شرف زيوس، وأثينا، وأبوللون الإغريقين، وجوبيتر، وجوئو وسواهما من آلهة الرومان، كما تواصلت إقامة الاحتفالات الشعبية المكرسة لهم، إلا أن سكان الإمبراطورية العاديين نظروا إلى هذه الشكليات نظرتهم إلى التقليد وحسب. فوفق الأساطير الإغريقية القديمة التي اقتبسها الرومان أيضاً، أن هؤلاء الآلهة كانوا آلهة منتقمين، قساة، يغارون من كل نجاح يحققه البشر؛ فأثينا مسخت النساجة الماهرة أراخني عنكبوتاً، لأنها تجرأت على أن تباريها في فن النسيج، وقتل أبوللون وارطميس أبناء نيوبي، الأبرياء، لأن والدتهم فاخرت بكثرة عدد أفراد ذريتها. ولكن هذه الأساطير البدائية التي كانت تكرر الخوف من الآلهة في زمن ما، لم تعد تتوافق مع الشعور الديني لسكان الإمبراطورية؛ إذ بعد فتوحات الإسكندر المقدوني، وبخاصة إبان القرون الميلادية الأولى انتشرت الثقافة الإغريقية فازدانت المباني في آسيا الصغرى، وسوريا، وفينيقيًا، ومصر بلوحات من الموزاييك، والمشاهد المنقوشة على الجدران والواجهات، تمثل آلهة الإغريق ومشاهد من أساطيرهم، إلا أن سكان هذه البلدان كانوا يرفعون صلواتهم وتوسلاتهم إلى آلهة آخرين، كما تبين نصوص شهادات المقابر هنا. فلم يكن للميثولوجيا الإغريقية أي مغزى ديني بالنسبة لسكان البلدان المذكورة.

وقد قال المؤرخ الإنكليزي ف. تارن في هذا الصدد: «هناك أسباب كثيرة عملت على تقرير مصير آلهة الأوليمب. لقد كان هؤلاء آلهة نظام دولة المدينة، فسقطوا يسقطوطه: قتلهم الفلاسفة في أعين المثقفين، وقتلتهم الفردية في أعين الناس العاديين»^(١). وعليه سعى الناس إلى

١- تارن ف. الحضارة الهلنستية. موسكو، ١٩٤٩. ص ٣٠٦.

العثور على شفعاء - حماة إلهيين آخرين، ولكن بات يجب ألا يكون هؤلاء آلهة حماة للقبيلة، أو البلاد، إنما آلهة لعالم البشر كله، ولكل إنسان بمفرده في الآن عينه. وكان هذا المطلب قد تجلّى بوضوح وجلاء في النصوص الأولى التي نقشت لتمجيد أغسطس: أعلن مولد الإمبراطور إيذاناً ببداية البشارة؛ وجسدت عبادة قيصر لدى أتباعه الأوائل وحدة الكون والمعمورة.

وبعد وفاة قيصر حاول خلفاؤه إدخال عبادة السيئات إلى جانب عبادة الإمبراطور: لقد نوه تاسيت (الحوليات)، إلى خطاب طيباريوس الذي أجاز لمدن مقاطعة آسيا تأسيس عبادته مع عبادة السيئات، مع أن هذه المدن لم تطلب إذنًا إلا لتأسيس عبادته وعبادة والدته ليبيا التي ألهمت أيضاً. بيد أن تلك المحاولات لم تحقق أي نجاح ملحوظ، لأن سكان المقاطعات كانوا لا يريدون أن يسجدوا لأجهزة روما الإدارية بأي حال من الأحوال^(١).

وعلى امتداد القرن الميلادي الأول كله، كان بعض أصداء العالمية لا يزال يتردد في عبادة الإمبراطور. فقد وصل إلينا مرسوم أصدرته مدينة صغيرة من مدن آسيا الصغرى، هي مدينة إيديما، وكرسته للإمبراطور فلافيوس فسباسيان: «إلى الحاكم المطلق الصلاحيات قيصر فسباسيان أغسطس المحسن، ومنقذ البشر كلهم، تعبيراً عن الشكر والعرفان. اتحاد الإيديميين، عنه إلى الآلهة». ويمكن أن يمثل هذا النقش أهمية من جوانب كثيرة. فإيديما عبارة عن بلدة ليست كبيرة، ولا يميزها شيء عن باقي مثيلاتها من البلدات، بل حتى أنها لا تحظى بأهلية دولة - المدينة، إنها مجرد «اتحاد الإيديميين». وليست صيغة التشريف هذه صيغة أصلاً لا سابقة لها: علاوة على صفته محسناً، يدعى فسباسيان فيها منقذ البشر كلهم من غير أي إشارة إلى ما أحسن به إلى إيديما نفسها. وما يثير الاهتمام في النص، هو عدم توافق حالة هذه البلدة النائية المعزولة، مع نظرتها إلى الحاكم بصفته شخصية عالمية، وأقرب الصيغ المشابهة لهذه الصيغة زمنياً (بعد النقوش التي كرس لأغسطس)، جاءت في مرسوم والي مصر طيباريوس يوليوس الكسندر، الذي أصدره على شرف الإمبراطور غالبا، الذي لم يحكم إلا فترة قصيرة. فقد وصف الإمبراطور في المرسوم المعني بأنه «الساطع لنا (أي للمصريين) من أجل خلاص الجنس البشري كله». وأنا لن أبحث في الدوافع التي حدث بالوالي إلى أن يستخدم مثل هذا الوصف الذي وصف به غالباً، فهو أحد أنصاره، وأنتي أزعّم أن استخدام الصفة المعنية كان مرتبطاً إلى حد ما بالحياة الروحية التي كانت تعيشها مصر وقتئذ. أما أن يكون

١- لقد أكد لك. لاتي أن عبادة سينات روما كانت طارئة ومؤقتة.

الإيديميون على اطلاع على هذا المرسوم، فإنه أمر ضعيف الاحتمال جداً، وربما كان هؤلاء على اطلاع على النقوش التي نقشت على شرف أغسطس، لأنها بقيت تزين ساحات المدن. فما الذي دفع إيديما إذن لكي تصدر مثل هذا المرسوم المختصر والجليل في الآن عينه، ولماذا استخدمت فيه تعابير «كونية، عالمية» لتكريم أول أباطرة سلالة فلافيوس؟ وربما لم يكن فسيبسيان قد سمع «باتحاد الإيديميين» هذا أصلاً، كما يشير إيجاز المرسوم إلى أن هذا الإمبراطور لم يقدم أي ميزات تذكر لسكان إيديما (حتى في المرسوم الاحتفالي المصري، فإن غالباً قد سطع للمصريين تحديداً). وعليه قد يكون الدافع الكامن من وراء إصدار هذا المرسوم التشريفي متمثلاً في انتهاء الصراع على السلطة، الذي اشتعل بين القادة العسكريين إثر مصرع نيرون؛ فقد كلفت المعارك الحربية سكان المقاطعات الشرقية جبايات مالية مرهقة. وكان تاسيت قد قال في مؤلفه: «التاريخ»، إن أسوأ ما وقع للمقاطعات كان بسبب هذه الجبايات تحديداً: لدى جبايته للأموال لم يأخذ موسيان، القائد العسكري لدى فسيبسيان، لم يأخذ بالحسبان الإمكانيات الواقعية للولايات، كما لم يقيم وزناً لأي قانون كان، لقد نهبت الملكيات الغنية كلها. وليس مستبعداً أن يكون سكان إيديما بين من تأذوا، بيد أن الوضع لم يتغير كما يقول تاسيت، حتى بعد أن أقيم السلام، إذ استمرت تلك «الإجراءات التعسفية» عينها قائمة على قدم وساق. ولذلك فإن وصف فسيبسيان بأنه (خلفاً لأغسطس)، «منقذ البشر كلهم»، لا يمكن أن يكون وصفاً أميناً وصادقاً، وكان يمكن انتقاء تعابير أخرى لترجمة الشعور بالولاء للإمبراطور، لا سيما أن فسيبسيان لم يعد نفسه إلهاً. ولكن من غير المحتمل أن يكون الإيديميون قد توفروا على تصور محدد عن شخصية الإمبراطور، ويبدو على أغلب الظن أن التعابير المستخدمة في النقش ترتبط بكون إيديما الصغيرة قد بدأت تشعر بانتمائها إلى الإمبراطورية الكبرى، وتسعى لأن تدرك ذاتها كجزء من البشرية ككل، وهو ما عبرت عنه في النقش المذكور. ونحن يمكننا أن نفترض أن البلدات غير الكبيرة بالذات، وهي البلدات التي لم تكن تملك تقاليد نظام دولة المدينة العريق، كانت معنية إلى حد كبير بالعلاقة مع العالم «الأكبر»، فمثل هذه العلاقة كانت تعوضها عن ضعف أهميتها فيه. وفي الحالة التي نحن بصدددها، غدا فسيبسيان رمزاً لعملية الانخراط هذه، أما تكريمه فقد بدا كأنه يمنح الإيديميين فرصة لكي يتحدثوا باسم الجنس البشري كله ويحسوا بأنفسهم جزءاً مستقلاً من الإمبراطورية الكبيرة، وله مكانته على قدم المساواة مع أجزائها الأخرى.

وتمثل أهمية خاصة في النقش، كلمة إفخارستيا (الشكر والعرفان). فهذا المصطلح نادراً ما يستخدم في النقوش، وإذا ما استخدم فإنه يستخدم عادة في وصف الآلهة. ولم تستخدمه المراسيم الأخرى التي أصدرتها إيديما على شرف أباطرة سلالة فلافيوس. وتدل كلمة إفخارستيا على الرغبة في إضفاء احتفالية خاصة على المرسوم، وقد تكون انطوت على إشارة خفية إلى ألوهية فسباسيان الذي لم يدع إلهاً صراحة، ولكن استخدامها مثله مثل استخدام صفة «العالمية»، يشهد على أن النقش لم تفرضه جهات عليا، إنما جاء بمبادرة حرة من الإيديميين الذين ربما أملوا باستراحة من عبء الجبايات من جهة، وطمحوا إلى لفت انتباه السلطات والجيران باستخدامهم تعابير غير مألوفة بالنسبة للمراسيم الرسمية في ذلك الزمن من جهة أخرى. ولكن الذي لا شك فيه، هو أن الكلمة كانت مألوفة السماع لدى سكان آسيا الصغرى الذين كانوا يرون في تلك الحقبة مختلف ضروب الدعاة الدينيين. فلم تكن «العالمية» بمتناول المسيحية وحدها، بل كان مثل هذه الأفكار يحلّق في الهواء. لقد بدا كأن إيديما أدركت صلتها مع الناس كلهم عبر الإمبراطور مخلص البشرية، مع أن ذلك كان يعني عملياً صلتها مع رعاياه وحسب.

ويمكننا أن نلفت الانتباه كذلك إلى جانب آخر يرتبط بهذا النقش: لقد غدا مصطلح إفخارستيا وكذلك مصطلح البشارة في نقوش تكريم أغسطس، من أهم المفاهيم التي تعامل بها المسيحيون الأوائل. ويفصح استخدام سكان إيديما لهذه الكلمة عن كونها قد دخلت التصورات الدينية لدى سكان آسيا الصغرى. ولكن المسيحيين استخدموها بمعنى مغاير تماماً، إذ جعلوا من إفخارستيتهم نقيضاً لإفخارستيا الوثنيين، وهذا ما فعلوه أيضاً بكلمة البشارة (= الإنجيل عند المسيحيين. - م).

وهكذا يتبين أن نقشاً صغيراً صادراً عن بلدة صغيرة، مهما كانت أهميتها متواضعة بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية ككل، إلا أنه يمكن أن يكشف عن السيكلوجيا الاجتماعية لقسم من سكان الإمبراطورية العظمى، الذين كانوا يجاهدون لإدراك مكانتهم وتحديد المكان الذي يشغلونه في العالم الرحب.

إبان القرن الميلادي الأول استبدل بالحماس الصادق الذي كان يكنه سكان الإمبراطورية للإمبراطور، إدخال عبادته رسمياً في الحياة اليومية لمدن المقاطعات. فصيغت للأباطرة ألقاب فخمة لا سابق لها، وباتت تتردد علانية تسميتهم آلهة (فعلى سبيل المثال لا الحصر، دعت مدينة كيزريك طيباريوس «بالأعظم بين الآلهة»، والحقيقة أن طيباريوس كان قد انزل بها قبل ذلك عقاباً صارماً لتقصيرها في إقامة طقوس عبادة أغسطس). لقد

أخذت عبادة الإمبراطور تتحول شيئاً فشيئاً إلى عبادة شكلية، مع أنها كانت إلزامية لسكان الإمبراطورية كلهم: ألزمت السلطات السكان بالسجود لتماثيل الأباطرة، وعدت أيام موالدهم أعياداً رسمية يُحتفل بها على مستوى الدولة. وحتى أثناء إقامة الاحتفالات المكرسة للآلهة المحليين كان ينبغي على المشاركين فيها أن يرفعوا رسم الإمبراطور الحاكم. ولكن السجود للإمبراطور إبان القرن الميلادي الأول اكتسب من حيث الجوهر، طابع التحقق السياسي من إخلاص الرعايا له، ولم يعكس بأي حال من الأحوال، الشعور الحقيقي لسكان الإمبراطورية. فقد وصل إلينا عدد كبير من النقوش الحجرية المكرسة لمختلف الآلهة، ولكن تقدمات الأفراد للآلهة - الأباطرة نادرة جداً. ولم يكن مثل هذه التقدمات يأتي إلا من كبار الموظفين، وكهنة عبادة الإمبراطور، والجنود القدامى، أو عندما كان الخوف يدفع الناس إلى ذكر اسم الإله الإمبراطور إلى جانب اسم الإله الذي يتوجه إليه الشخص المعني. بيد أن أكثر تقدمات الأفراد للآلهة لا يشير إلى الأباطرة حتى مجرد إشارة، وحتى الآن لم يعثر على أي نداء مكرس للإله الإمبراطور فيه توسل بتلبية هذه الرغبة أو تلك (لم يكن أي نداء محدد يوجه للإمبراطور إلا عبر الإدارات الرسمية المعروفة). وعليه يبدو واضحاً أن عبادة الإمبراطور باتت عاجزة عن تلبية الشعور الديني لدى جماهير الشعب، بخاصة أنه بعد مقتل كل إمبراطور من أباطرة القرن 1م، كانت تماثيله ترمى ولم يعد يكرم كإله. فأي انفعال ديني يمكن أن يثيره تمثال الإمبراطور دومسيان لدى سكان أفسس مثلاً، بعد أن حطم ورمي به ركاباً في مكانه الذي بقي فيه إلى أن اكتشفه آثاريو العصر الحديث؟

وفي كثير من أقاليم شرقي المتوسط أسس السكان اتحادات على شرف الآلهة الذين ظنوا بأنهم أقرب إليهم، وأنهم أكثر جبروتاً، أو كانوا يتعبدونهم في المعابد المنزلية، وغالباً ما كان مثل هؤلاء الآلهة آلهة غريباء. وإذا كان واحدهم ينخرط في الجمعية الدينية، كان يظهر في الآن عينه فرديته، لأنه اختار بنفسه الإله وأقام صلته به عبر شعائر جماعته وطقوسها، ولم يعد في الوقت نفسه يشعر بالوحدة، فهو الآن مرتبط مع الآخرين الذين يتعبدون الإله عينه. وكان كثير من تلك الاتحادات قد انتظم حول عبادة آلهة الشرق الذين يموتون ثم يبعثون: الإله المصري أوزيريس، أو الإله أتيث الذي شاعت عبادته في آسيا الصغرى. ففي زمن ما عرف كثير من الشعوب عبادة مثل هؤلاء الآلهة الذين كانوا يمثلون عندهم تعاقب فصول السنة أو موت الطبيعة ثم عودتها إلى الحياة. ولكن هؤلاء الآلهة اكتسبوا مع الزمن صورة الآلهة - المخلصين أولاً، وكان يمكن أن تحقق الإقامة على خدمتهم الاتحاد مع الإله، وخلود الروح.

فحسب الأساطير المصرية أن أوزيريس كان إله الخصب، وأول ملوك مصر الذي علم المصريين فنون العمل الزراعي. ولكن شقيقه ست، إله الريح الصحراوية المهلكة، عزم على قتله. فأهداه ناووساً كان قد صنعه له، وما أن استلقى أوزيريس فيه لكي يتحقق مما إذا كان على مقاسه، حتى أغلق أوزيريس الناووس ورماه في مياه النيل. ولكن النهر المقدس رفض أن يستقبل الناووس، الذي كانت تبحث عنه الإلهة إيزيس زوجة أوزيريس وعندما عثرت عليه نجحت في أن توقظ القوة الحية في زوجها الميت وتحمل منه بابهما حورس. ودخل حورس في صراع ضد ست، فهزمه وأقام أوزيريس من الموت. وحسب رواية أخرى لهذه الأسطورة عينها، أن ست قطع جسد أوزيريس إلى أجزاء نثرها في مختلف أرجاء وادي النيل، لكن إيزيس عثرت عليها كلها وأعادت جمع جسد أوزيريس من جديد. بيد أن الإله الذي بعث إلى الحياة من جديد، لم يشأ أن يبقى على سطح الأرض، وصار إلى رب لمملكة الأموات التي كانت تمثل في تصورهم بلاد الوفرة الكاملة حيث سنبلة القمح أطول من قامة الإنسان. ولم يكن أوزيريس في مملكة العالم السفلي ملكاً وحسب إنما كان قاضي الأموات فيها أيضاً، ولم يكن يدخل مملكته سوى الناس الصالحين الذين لم يقتربوا في حياتهم أثاماً.

وبعد أن استولى الإسكندر المقدوني على مصر، وصار عرشها إلى سلالة البطالمة الإغريقية، هاجرت من بلاد الإغريق إلى مصر أعداد كبيرة من المهاجرين الإغريق، فاتحدت شخصية أوزيريس بشخصيات الآلهة الآخرين، مصريين وإغريق: الثور المقدس إيبس، والإغريق زيوس وهاديس؛ وهكذا ظهر سيرابيس. لقد كان سيرابيس رب السماء ومملكة الأموات وكان بطليموس الأول هو الذي أقام عبادة هذا الإله ليخلق تقارباً بين سكان مصر المصريين وسكانها من الإغريق. وقد شاعت عبادة سيرابيس شيوعاً كبيراً في إقليم شرقي المتوسط كله. كما شاعت في الإمبراطورية عبادة إيزيس أيضاً. فأقيمت معابدها في روما نفسها. وعمل الأباطرة على محاربة العقائد الدينية الغريبة. فقد أخبرنا تاسيت أن الإمبراطور طيباريوس (١٤-٣٧م)، نفى خارج روما اتباع «الطقوس المصرية واليهودية»، وأرسل أربعة آلاف منهم إلى جزيرة سردينيا. ومن الواضح أن مثل هؤلاء الأتباع كانوا كثيرين. بيد أن الإجراءات التي اتخذتها السلطات لم تحقق نجاحاً. فقد ظهر عابدين إيزيس في روما من جديد ونظموا مواكب جماهيرية على شرفها. كما كتب ممثلو الفئة المثقفة بدورهم عن إيزيس: لقد أكد بلوتارخ في بحثه الذي تناول فيه أوزيريس وإيزيس، أن أسطورتها تكشف عن أعماق القوى المحركة للبناء الكوني.



عيد في معبد إيزيس. زخرفة من بومبيوس

وكان ثمة معبود شرقي آخر، هو الإله الفريجي أتيس (فريجيا هي إقليم من أقاليم آسيا الصغرى)، الذي كانت عبادته مرتبطة بعبادة أم الآلهة: أغيديتيس أو كيبيلا. وحسب إحدى روايات الأسطورة أن خنزيراً برياً مزق أتيس، ووفق أخرى أنه في إحدى نوبات جنونه خصى نفسه فمات. ولكن الإلهة جعلت جسده فتياً أزلياً لا يفنى؛ فنبئت من دمائه الزهور. ولكن تنويع هذه الأسطورة الأكثر شيوعاً، هي التنويع التي تقول: إن أتيس كان خادم إلهة الخصب كيبيلا. فانتهك حياة العفة المفروضة على كهنتها وأغرم بإحدى الحوريات. فقتلت الإلهة الحورية، وفي أول نوبة وجد خصى أتيس نفسه. لقد شاعت عبادة أتيس وكيبيلا في المقاطعات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، وقد توسل الناس متهما هنا الخلاص من الآلام الدنيوية. ففي أثناء



مشاركات في المسرحية الطقوسية وراقصة (فيلا الطقوس)



راقصة (فيلا الطقوس). زخرفة من بومبيوس

الاحتفالات التي كانت تقام على شرف أتيس، كان الكاهن يردد: «اطمئئنا أيها الأطهار، فكما نجا الإله، كذلك أنتم، سوف يتحقق لكم الخلاص»..

وكان الإله أدونيس الذي يموت ثم يبعث حياً، هو الإله الذي عشقته الإلهة أفروديت، ومزقه خنزير بري ضار. وكان الكاتب لوقيانوس (القرن ٢م) قد ترك لنا وصفاً للاحتفالات التي كانت تقام على شرفه في سوريا، ووفق لوقيانوس، أن السكان المحليين كانوا يجلدون أنفسهم كل عام إحياء لذكراه، ثم يعلنون بعد ذلك أن أدونيس بعث من الموت وصعد إلى السماء.

وعلى امتداد الإمبراطورية كلها شرقاً وغرباً، عبدوا إله الشمس الإيراني ميترا. ولم يكن لهذا الإله دور مميز في مجمع الآلهة الفارسي، بيد أنه بات في مقاطعات الإمبراطورية واحداً من أعظم الآلهة - المخلصين، حامى الجنس البشري، والعدو

اللدود للشر في العالم، وتروي الأسطورة عن صراع ميترًا ضد الثور وانتصاره عليه وقتله له. وتجسد دماء الثور الشر، لكنها هي التي أصلحت شأن العالم. فانتصار هذه الديانة يؤمنون بأن ميترًا سوف يهزم الشر في نهاية المطاف، ويدمر هذا العالم، ثم يقيم مملكة العدل، ويبعث الأموات من القبور أحياء. لقد اكتشفت معابد ميترًا في شتى أرجاء الإمبراطورية الرومانية وصولاً حتى لندن (التي كانت في القرن ١م معسكراً للقوات الرومانية): ووصل إلينا كثير من تصاوير ميترًا قاتل الثور. ويرى كثير من العلماء أن الميترية كانت المنافس الرئيس للمسيحية الوليدة. ولكن الطوائف الميترية كانت طوائف مغلقة لا يدخلها سوى الرجال الذين ينجحون في اجتياز شتى الاختبارات الفيزيائية. وقد لاقت عبادة هذا الإله شيوعاً خاصاً في أوساط المقاتلين، الذين رأوا في الإله المقاتل ميترًا حاميه، ومثلهم الأخلاقي. وكانت الرجولة، والإخلاص، وتبادل المساعدة، هي القيم المثالية التي تمسك عابدين ميترًا، فقد كان كل منهم يدعو الآخر أخاً. واحتفلوا بيوم مولد ميترًا - الشمس سنوياً في ٢٥ كانون الأول، وهو يوم الانقلاب الشمسي الشتوي.



ميترًا يقتل الثور. مجسم من معبد ميترًا في هيدرنهيم (ألمانيا)

ومن بين آلهة الإغريق كلهم حظي الإله ديونيسوس بأعرض شهرة، وديونيسوس هذا، هو إله الكرم. لكن عبادته اكتسبت عشية بداية التاريخ الميلادي، محتوى جديداً. فقد أخذوا يدغمونه أكثر فأكثر بالإله زاغريوس ابن زيوس الذي كان الطيطانيس قد مزقوه، لكن زيوس أعاد إحياءه تحت اسم ديونيسوس. كما رأوا فيه أيضاً إلهاً يموت ثم يبعث حياً. وارتبطت بعبادة ديونيسوس أخويات الأورفيوسيين الدينية، وكانت هذه قد حملت اسمها هذا تيمناً باسم المغني الأسطوري أورفيوس، الذي نزل إلى مملكة الأموات السفلية لكي ينتشل من هناك زوجته إيفريديكي. وقد عاد أورفيوس نفسه إلى الأرض ثانية، لكنه فشل في انتشال زوجته. لقد كانت أخويات الأورفيوسيين موجودة قبل ذلك بزمان طويل، لكنها مثلها مثل عبادة زاغريوس - ديونيسوس، لم تلق انتشاراً ملحوظاً إلا في القرون الأخيرة التي سبقت التاريخ الميلادي، بعد أن جمعت في ذاتها جملة من طقوس السحر الشرقية. وكانوا على يقين وقتذاك، بأن الإنسان إذا ما أدى طقوس هذه العبادة وامتثل لمتطلباتها الأخلاقية (التنسك، واحتقار الجسد)، فإنه قادر على أن يتطهر من أي إثم كان، ويتفادى العقاب الذي ينتظره في العالم السفلي، ويضمن الخلود لروحه. لقد آمن الأورفيوسيون، عبدة زاغريوس - ديونيسوس بنزوح الروح، وتوسلوا من هذا النزوح تحقيق الانعتاق عبر الاتحاد مع الروح الكوني، مع ذلك الجزء من الماهية الإلهية، الذي اعتقدوا بأنه متضمن في الغلاف المادي للإنسان، وأنه يجب أن ينعق من هذا الغلاف مرة وإلى الأبد.

وفي بحثه الذي يحمل العنوان: «كلمة لطمانينة زوجتي»، يتفكر بلوتارخ في مسألة خلود الروح وفق تعاليم مسرحيات الأورفيوسيين الدينية السرية التي كان مكرساً هو وزوجته فيها. ولم يكن هؤلاء الصوفيون يقرون بالاعتقاد التقليدي الذي مؤداه أن الأموات عاجزون عن أي شيء غير لائق ومسيء: تعاني الروح الخالدة ما يعانيه الطير الحبيس، إذا ما طال زمن بقائها في الجسد، ولذلك فإنها عندما تنعتق من الغلاف المادي تتجسد من جديد في جملة من الولادات ولا تكف عن أن تخضع للمعاناة الدنيوية. وعليه فإنه من الأفضل للروح ألا تبقى في الجسد طويلاً، لأنها عندئذ تحافظ على ما يدعوه بلوتارخ: «الحالة الأفضل»، أي الانعتاق من سلسلة الولادات. ومن الواضح، كما يفهم من الملاحظات المتفرقة التي تحملها المصادر، أن التخلص من تنالي الولادات، والاتحاد مع إله خارج الوجود، كانا الغاية من التكريس في مسرحيات الأورفيوسيين الدينية السرية. وكانت هذه المعتقدات كلها قائمة على الصوفية، أي على إدراك العالم إدراكاً انفعالياً لا إدراكاً عقلانياً، وعلى رفض الحياة الدنيا، والسعي إلى العثور على وسائل للتواصل مع الإله واللا وجود، وتحقيق الخلود. وتمثلت الوسيلة الأساس

لبلوغ هذه الغايات كلها ، بالانخراط في طوائف خاصة تضم في صفوفها المختارين ، والاشتراك في تأدية المسرحيات الدينية السرية التي كانت تؤدى فيها مشاهد مكرسة لهذا الإله أو ذاك. وبما أن تلك المشاهد كانت تؤدى سرّاً ، فإننا لا نعرف عنها إلا القليل. لقد كان أتباع عبادات الطقوس السرية يؤلفون طوائف صغيرة كان ينبغي على من يود الانتماء إليها أن يجتاز طقوس التطهر والآلام. وعلى شاكلة هذه الطوائف المغلقة كانت أخويات الديونيسيوسيين ، فقد كان ينبغي على من يود الانتماء إليها أن يصوم عشرة أيام أولاً ، ثم يتلقى بعد ذلك شعيرة الاغتسال الدينية. ويبدأ من ثمّ طور الاختبار الذي كان عليه أن يظهر خلاله أنه قادر على الصمت وعدم البوح بأي من أسرار الطقوس. وبعد ذلك فقط يسمح له بالمشاركة في المسرحيات الدينية السرية. لقد كان أعضاء الطوائف الديونيسيوسية يقيمون مرة كل عام احتفالات علنية مفتوحة ، مواكب: كانوا يحملون أثناءها قضباناً مغطاة بعناقيد العنب ، ويسيرون وهم يعزفون على الناي. وفي حالة من الوجد كان هؤلاء يستغرقون في الرقص إلى أن يشعروا بأن الإله قد امتلكهم. وعندئذ كانوا يعثرون على معزاة برية ، فيمزقونها ويشربون دماءها الساخنة ، ويأكلون لحمها نيئاً عادين ذلك مشروباً وطعاماً إلهيين. لقد كان هؤلاء الصوفيون يؤمنون بأن هذا الذي يفعلونه يحقق لهم الاتحاد مع الإله ويمنحهم الخلود. وفي العصر الروماني كان يمكن أن ينتمي إلى الأخويات الديونيسيوسية النساء ، والرجال ، والعبيد ، والأحرار.

وعرفت المسرحيات الدينية السرية التي كانت مكرسة لكيببلا وآتيس ، طقس قتل ثور: طقس التاوروبوليا ، الذي يعد بدوره قرباناً دموياً ، وحسب معطيات علم الآثار ، وبعض نتف المعطيات المكتوبة ، أنه كان ثمة تجويف في معبد الإلهة ينزل الصوفية فيه ، وفوقه كانوا ينحرون الثور لكي تسيل دماؤه على المكرس: هكذا كانوا يقيمون طقس التطهير بالدم. وفي أثناء تأدية الحركات التهتكية كان آتيس يخصي نفسه ، وكان هذا بدوره ضرباً من ضروب القرбан الدموي والتطهر بالدم ، والانتقال إلى حياة جديدة. وكانت التاوروبوليا حاضرة كذلك في المسرحيات الدينية السرية المكرسة للإله ميترا: لدى قبول عضو جديد أو أعضاء جدد في الطائفة ، على سبيل المثال. لقد كانت العبادة الميترية تتضمن أيضاً طقس الاغتسال التطهري ، والوليمة المشتركة للذين كانا يرمزان عند صوفي هذه الديانة إلى الوعد بالحياة السماوية. ولكن ما يجب قوله ، هو أن كثيراً من طقوس المسرحيات الدينية السرية غير معروف لنا معرفة جيدة ، لأن تلك الطقوس كانت على وجه العموم طقوساً سرية. ومن المعروف أن بطل أبوليوس في مؤلفه «الحمار الذهبي» (القرن ٢م) ، قد كرس بعد كل الرزايا التي حلت به ، في مسرحيات

إيزيس السرية، وقد قال إنه لا يجزؤ على أن يروي أي شيء عن الاختبارات التي مر بها: «لقد بلغت حدود الموت.. وعدت ثانية عبر كل البيئات». كما كانت محاكاة الموت موجودة في مسرحيات ميترا السرية كذلك: عندما كان المرء يعبر الموت الرمزي، كان يكتسب بذلك حياة جديدة. ولكن هذه العبادات الصوفية كانت عاجزة عن إنتاج دين جديد، أولاً وقبل كل شيء بسبب انغلاقها على ذاتها، ولجوتها إلى التطهر الطقوسي لا الروحي، وصلتها بتأدية المشاهد الوثنية القديمة. ضف إلى هذا أن طقوس المسرحيات الدينية السرية كانت تكرر الحدث عينه دائماً: في كل مرة كان الإله يموت ثم يحيا من جديد، وفي كل مرة كانت تقدم ذبيحة التطهير. ولم تكن هذه الدورة تؤدي إلا إلى خلاص فرد واحد، هو المكرس في المسرحية الدينية السرية، أما البشرية ككل فقد كانت تبقى خارج دائرة الخلاص.

والسمة الجوهرية الأخرى التي تميزت بها العقائد الدينية في الإمبراطورية الرومانية، هي الإيمان بأن الآلهة المخلصين هم آلهة ذوو قدرة كلية، وأن الإله المبجل هو إله يخضع له الكون كله. وعشية بدء التأريخ الميلادي سارت عملية تعميم الإله المعبود، أي صيرورة ما اتفق على تسميته بالتوحيد الوثني. لقد أخذت شخصيات مختلف الآلهة يتدغم واحدها بالآخر كما حصل بالنسبة للإله سيرابيس، ولكن إذا كانت عبادة هذا الأخير قد أنشئت بصورة مصطنعة إلى حد كبير، فإن توحيد الآلهة الآخرين غدا نتيجة الإبداع الميثولوجي لجماهير عريضة من السكان. فالأم العظمى بصفتها بداية الوجود كله، أدغمت بالفينيقية استرتا، والمصرية إيزيس، وكيبيلآ آسيا الصغرى، والإغريقين أفروديت وأرطيميس، والهة العالم السفلي هيكتاتي. وعدت هؤلاء كلهن أقانيم لها. وتجلّى الإيمان بالإله الكلي القدرة عبر الاهتمام باليهودية أيضاً، لا سيما أن عدداً كبيراً من اليهود كانوا يعيشون في مدن المقاطعات الشرقية وحملت النصوص التي كتبت باللغة الإغريقية تقدمات للإله الأعلى، من غير أن يذكر اسمه. ويمكننا أن نفترض أن السجود لهذا الإله قد جاء نتيجة لتأثير اليهودية. ووصل إلينا نقش من إحدى مناطق آسيا الصغرى كان قد نقش على شرف رئيس الكنيس اليهودي المحلي مقدمة من أخويه عبدة الإله - الشاباتيست، أي إله السبت. كما انعكس الاهتمام ببداية اليهود القدماء في الآثار الأدبية أيضاً: لقد كتب الجغرافيون سترابون بإعجاب واضح عن موسى^(١) وتعاليمه عن الإله الواحد الذي يدير شؤون الكون والطبيعة. وأبرز

١- لقد رأى سترابون في موسى، كاهناً مصرياً لم يكن راضياً عن الأسس التي كانت سائدة هناك، فأخرج من هناك إلى اليهودية الناس الذين كانوا يؤمنون بالإله (أي الإله الواحد). ورأى سترابون أن خلفاء موسى أفسدوا تعاليمه.

سترابون المتطلبات الأخلاقية التي تفرضها هذه التعاليم على المؤمنين: لا يحصل على بركة الإله إلا أولئك الذين يعيشون عيشة رشيدة تتوافق ومبادئ العدالة (الجغرافيا). لقد كان لليهودية تأثيرها في روما حتى في أوساط دوائر المجتمع العليا: يقال أن زوجة نيرون كانت تؤمن بالإله اليهودي.

وحسب معتقدات المؤمنين أن إلهاً واحداً يدير شؤون الكون. فقد جاء في صلاة لوسيوس، بطل رواية «الحمار الذهبي»، التي رفعها إلى إيزيس: «أنت تدورين العالم، وتوقدين الشمس، وتديرين شؤون الكون.. بإيماء منك تتقد النار، وتتلبد السماء بالغيوم الداكنة، وتزرع الحقول، وينبت الزرع». وتدعى إيزيس بشفيعة الجنس البشري، وحارسة الأموات. وجاء في نقش من جزيرة إيوس، أن إيزيس هي التي وضعت القوانين للناس، وفصلت بين السماء والأرض، وأرشدت النجوم إلى دروبها. بيد أن إيمان الناس بجبروت إيزيس لم يكن ينفي وجود آلهة آخرين: لقد جاء في ذلك النقش عينه أن إيزيس زوجة الملك أوزيريس وأخته، قد أنارت قطاعات الآلهة وعلمت الناس تبجيل تصاويرهم؛ لقد كان العزوف عن تعدد الآلهة أمراً بالغ الصعوبة.

ومع اعترافهم بجبروت أرباب الكون، اتكل الناس في الوقت نفسه على عونهم، وأملوا بعدلتهم، وطيبتهم التي لم يكن آلهة العصر الإغريقي الروماني يتمتعون بها، فغالباً ما كان هؤلاء منتقمين قساة يغارون من كل نجاح يحققه البشر. ففي نقش إيوس هذا عينه تقول إيزيس عن نفسها: «جعلت العدل أقوى من الذهب والفضة.. وقد فعلت هذا كله لكي يتمايز البديع عن المخزي كل حسب طبيعته».. وفي سوريا تقدمات إلى إله مجهول الاسم يدعى: «الإله الطيب».

وقد اتكل الناس على أن الآلهة الذين رفعوا إليهم توسلاتهم وصلواتهم سوف يلبونهم. وعثر الآثاريون في الشطر الشرقي من الإمبراطورية على عدد كبير من التقدّمات المكرسة «للآلهة المصغين» أو لإله «صاغ» واحد (من غير اسم)، ورأوا في مثل هؤلاء الآلهة آلهة «أنقياء» (أي لا عيب فيهم -المؤلفة) وعادلين: ونقف على هذه النعوت حاضرة في كثير من النقوش الأخرى. إذن لم يعد الإيمان بإله واحد جبار أو بآلهة جبابرة مرتبطاً بمكان ما بعينه أو بقوم بعينهم، لقد شاع الآن الاعتقاد بوحدة الجنس البشري: في الأول بين الفلاسفة، ثم في الأوساط الشعبية الواسعة. ففي واحد من النقوش التي تنتمي إلى القرن ام، والتي عثر عليها في مدينة صغيرة من مدن آسيا الصغرى، هي مدينة بانامار، يقول كاتب النص، إنه يمكن أن يشارك في الاحتفالات المقامة على شرف إله المدينة الرئيس

ريوس، المواطنين، والوافدون و «سكان المعمورة كلهم»، وغني عن البيان القول، إن واضعي النقش المذكور لم ينتظروا طبعاً أن يتقاطر إليهم الناس من مختلف أرجاء المعمورة، بيد أنهم وجهوا الدعوة إليهم، معلنين بذلك وحدة البشر كلهم أمام الإله، و «كونيته».

لقد خلق الإيمان بالآلهة المحسنين لدى عابديهم أسئلة كثيرة حول سلوك هؤلاء أنفسهم، هذا السلوك الذي كان يجب أن يجعلهم مؤهلين لنيل عطف الآلهة. فظهرت في موثيق الأخويات الدينية الخاصة تعاليم وإرشادات أخلاقية. إذ طلبت أخويات مجلي الإله الفينيقية استرتاً من أعضائها الالتزام بالطهارة الفيزيائية والأخلاقية معاً. كما يثير الاهتمام في هذا السياق الاتحاد الديني الذي تألف في مدينة فيلاديلفيا في آسيا الصغرى، من عابدي الإله زيوس والآلهة الأم. وكان هذا الاتحاد قد تأسس منذ القرن اقم على يدي فيلسوف مجلي، ونقش ميثاقه على صفيحة حجرية. لقد كان الاتحاد يقبل في صفوفه الرجال والنساء من الأحرار والعبيد على قدم المساواة. والتزم أعضاؤه بالآيا ضمروا الغدر للآخرين، وآلا يمارسوا السحر، وآلا يصنعوا أي عقار سحري، وآلا يلجؤوا إلى أي وسيلة من وسائل منع الحمل (في أواخر العصر القديم شاع اللجوء إلى الإجهاض في الدولة الرومانية). لقد كان على الزوجات أن يحافظن على إخلاصهن لأزواجهن، ويصن عفتهن. كما حرم على الرجال إقامة أي علاقات جنسية مع النسوة المتزوجات، بمن في ذلك الإماء المتزوجات. وكان انتهاك هذه المحرمات يستدعي إنزال العقاب بمن ينتهك: التوبة علانية، ثم الحرمان من المعبد. أما المحسنون من أعضاء الاتحاد، فإن الآلهة يهبونهم كما يقول النقش، ما يهبونه لأحبائهم وللجملة الأخيرة في نص النقش دلالة مميزة: من حيث جوهر الأمر لم يكن بمقدور أعضاء الاتحاد أن يتخلصوا من المعتقد الوثني التقليدي بالآلهة الوثنيين الذين حسب الأساطير، يهبون الخيرات المادية الزمنية لأحبائهم. وربما كان عابدو زيوس والأم العظمى قد أدركوا قصور هذا التصور، فعمدوا إلى الابتعاد عن أي إشارة إلى ثواب محدد في الميثاق؛ ومن الجلي أن فكرة الخلاص الذي يناله المؤمن في المملكة الإلهية لم تكن قد صيغت بعد ويبدو أنه ليس من قبيل المصادفة أن تكون فيلاديلفيا هذه حاضنة منذ وقت مبكر جداً حسب رؤيا يوحنا، لواحدة من أولى الطوائف المسيحية التي يزعم أنها ظهرت هناك في القرن ام.

ولم يكن من قبيل المصادفة أيضاً أن يتخذ الاتحاد الفيلاديلفي موقفاً مناهضاً للسحر: إلى جانب عبادتهم للآلهة المخلصين، كان كثير من الناس الذين ينتمون إلى

مختلف فئات المجتمع، يلجؤون إبان القرون الميلادية الأولى، إلى الشعوذة ومختلف ضروب التنبؤات، لأنهم كانوا لا يثقون بقدراتهم الذاتية على تفادي الرزايا. وكانت رواية أبوليوس «الحمار الذهبي»، قد عكست بوضوح شديد تصورات ذلك الزمن عن العالم المحيط بصفته عالماً يعج بالشرور، والسحر، والشعوذة. فقد استخدم أبوليوس في روايته هذه شتى موضوعات المعتقدات الشعبية. كما انعكس الشعور بالخوف من القوى الغاشمة، وغدرها وعبثها وغبائها (من وجهة نظر أبوليوس، كان ينبغي أن يخفف ذلك الغباء من شدة كابوس السحر)، بجلاء ملفت في حكايات الساحرات التساليات. فقد كان راوي هذه الحكايات مؤجراً حارساً لجثمان ميت من عبث الساحرات به، لكن هؤلاء أخطأ الميت وسحرن الحارس وقطعن له أنفه وروحه: لقد زادت التفاصيل التراجيدية - الكوميديّة من سخف الموقف برمته وجعلته هذراً بهذر. وفي آخر الحكاية يخبر الراوي المشاهدين أنه غدا شاهداً على الحدث الآتي: في أثناء إقامة طقوس دفن أحد الشبان، طلب والد الشاب من متنبئ مصري (دفع له مبلغاً كبيراً من المال) أن يعيد ابنه إلى الحياة لبعض الوقت، ولما عادت الحياة إلى الشاب أفاد بأن زوجته هي التي قتلتة. ولكن عملية الإحياء كانت ممضة: كان الفتى يتوسل الساحر أن يتركه وشأنه. ومهما كانت الحال فإن هذا المشهد يدل على أن الناس في ذلك الزمن كانوا يؤمنون بإمكانية إحياء الأموات، بيد أنهم رأوا فيه فعلاً سحرياً تقوم به قوى شريرة.

ولذلك ليس غريباً أن يبحث الناس الذين أرهقهم الخوف، عن وسطاء بينهم وبين الآلهة. ومع أن المثقفين كانوا يهزؤون بمثل تلك المساعي والاهتمامات، ولكن دون جدوى. ولمؤلف الناقد الاجتماعي لوقيانوس: «الإسكندر، أو النبي الدجال» دلالة خاصة في هذا السياق. فقد روى لوقيانوس هذا (القرن ٢م) قصة المدعو الإسكندر الذي يبدو أنه كان شخصية حقيقية، إذ كان ينطق بنبوءات ينسبها إلى الإله المداوي والمتنبئ اسكليبيوس (وكان هذا الإله يعبد في أماكن كثيرة بصفته اسكليبيوس المخلص). وكان الإسكندر هذا قد أعلن في غضون ذلك أن «اسكليبيوس جديداً» قد ولد من أرنب في هيئة أفعى، وأنه يحيي الأموات ويتكهن بما سوف يأتي. لقد عثر الإسكندر على أفعى في مكان ما، وأخذ يعرضها على الحشود، ثم شرع يظهر للناس من تحت رداءه رأس حية صنعه لهذا الغرض، وكانت الرأس تفتح فمها وتطبقه بينما الإسكندر يعلن «نبوءاتها» بصوته. وأخذت الحشود تتقاطر إليه حاملة مختلف ضروب التقدّمات، لقد كان النبي الجديد يستقبل فيمن يستقبل أعضاء من السينات. وعلى هذه الخلفية كتب لوقيانوس بمرارة: إن الحياة الإنسانية بين

أيدي ربين عظيمين: الأمل والخوف، وإن من ينجح في استخدامهما عند الضرورة سرعان ما يغدو ثرياً (الإسكندر، أو النبي الدجال). لقد قدم لوقيانوس هذا الإسكندر لنا دجالاً مشعوذاً مكشوفاً، لا يتورع عن اللجوء إلى أي وسيلة مهما كانت شريرة (لقد حاول أن يقتل لوقيانوس نفسه).. ولكن تبجيل الإسكندر لم يكن مجرد نتيجة لإتقانه فن الشعوذة وحسب، كما لم يكن ناتجاً فقط عن جهل أتباعه ومعتقداتهم الخرافية. فلا ريب في أن الرجل كان يمتلك القدرة على الإيحاء، إذ مهما كانت نبوءاته ساذجة وخرقاء بالنسبة للوقيانوس، إلا أنها كانت تنال رضى الذين كانوا يطلبونها منه: لقد كانت تلك التنبؤات تلبى الضرورات الذاتية لأتباع الإسكندر.

وعلاوة إلى هذا كله، فإن نشاط الإسكندر يمثل بالنسبة للمؤرخين أهمية أخرى، تتمثل في أن الإسكندر عندما أعلن عن مولد «اسكليبيوس جديد»، عرض أمام الحشود «إلهاً حياً» ظهر «هنا الآن»، أي بكلمات أخرى، كأنه أعطى للناس فرصة للتواصل مع الإله مباشرة. ومن البدهي أن الإسكندر ومبجليه لم يخرجوا في هذا السياق خارج أسس الرؤى الوثنية الراسخة في العمق. فالإله الذي ظهر لهم لم يكن إلهاً مختلفاً من حيث المبدأ، بل مجرد تجسد جديد للإله القديم اسكليبيوس (لقد أعلن الإسكندر ابنته «سيلينا الجديدة» - أي إلهة القمر). وفي بعض الأحيان كان الإيمان بإمكانية الاتحاد مع الإله الذي ظهر لتوه، يتجلى في شتى الأشكال «المادية»: لقد كانت النساء، بمن فيهن المتزوجات، على استعداد أكيد لمساكنة النبي، وذكر لوقيانوس بالاسم زوجة أحد قضاة الإمبراطور التي شاركت في تأدية المشاهد الدينية التي نظمها الإسكندر: أدت فيها دور إلهة القمر العاشقة للنبي. وثمة كثرة من النسوة اللواتي تفاخرن بأنهن أنجبن من الإسكندر. وقد يكون لوقيانوس بالغ بعض الشيء، بيد أن شغف النسوة بالمعتقدات «غير التقليدية» كان سمة من سمات ذلك الزمن. ففي مؤلفه «إرشادات للزوجات» يحض بلوتارخ الزوجات على «إبقاء الأبواب مغلقة» في وجه المعتقدات العبثية والطقوس الغريبة. والحقيقة أن الرجال أظهروا بدورهم سعياً للتقرب من الإله، لا سيما الإله «اسكليبيوس الجديد»، فقد زوج الإسكندر ابنته إلى سيناتور روماني.

لقد كانت تلك هي سمات المعتقدات الدينية في القرون الميلادية الأولى: العمل على العثور على إله جبار ورحيم، منقذ الجنس البشري كله، ويكون في الوقت نفسه بمتناول يد كل شخص بمفرده؛ يستجيب للتوسلات، ويبعث الأمل بإمكانية التواصل معه؛ ثم البحث عن وسيط في هذا التواصل مع الآلهة (حسب المعتقدات الخرافية التي كان يؤمن بها

ناس ذلك الزمن، وأن التواصل مع الإله كان يمكن أن يتحقق عبر شخص: نبي، متنبئ يتوفر على قوة خاصة). وفي الوقت عينه بقي السحر يشغل مكانة مهمة في نظام معتقدات الشريحة المعرض من سكان الإمبراطورية، الذين سعوا حتى عن طريق القرابين الدموية، وتأدية الطقوس الخاصة، والاستعانة بالتعاويذ السحرية إلى التخلص من الخوف أمام القوى الظلامية العامة وإحاق الهزيمة بها. كما بقي التواصل المادي لا الروحي متعايشاً بين المؤمنين مع البحث عن الأخلاقي. وفي مثل تلك البيئة الدينية - السيكولوجية بالذات بدأ المسيحيون الأوائل نشاطهم بالإجابة عن الأسئلة عينها التي كانت تقلق الناس، ولكن محتوى إجاباتهم كانت مختلفة اختلافاً ميدئياً عما كان يطرحه أتباع العبادات الدينية الأخرى.